خطبة صلاة الجمعة 12/ 2/ 2021 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(السخاء وأثره في رفعة الأمة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة].

الوعي في اللغة يدل على فهم الشيء وحفظه وفقهه والإحاطة به.

والأذن الواعية: هي أُذُنٌ سَمِعَتْ وَعَقَلَتْ مَا سَمِعَتْ، أو هي أُذُنٌ تحفظُ ما سمعَتْ، وتفكر فيه وتعمل بموجِبِه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا؛ ثم بلغها، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ» [أخرجه الترمذي والطبراني واللفظ له وغيرهما].

هذه هي الخطبة السابعة في سلسلة عنوانها **(توعية)**، أعرض لكم فيها صوراً وأحداثاً من علاقاتنا الأسرية ومعاملاتنا المالية؛ صحيحةً مرة لنُعَمِّم خيرها وننشر فضلها، وخاطئةً أو مخطئةً مرة لنَحْذَر شرها ونترك فعلَها؛ وفي كلتا الحالتين نفيد وعياً وفهماً.

يحب الإسلام أن يتحلى أبناؤه بالعلم، ويتزينوا بالفهم، ويتجملوا بالحكمة، ويتمسكوا بالتعقل، والتدبر والوعي.

وعلى الطرف الآخر يكره الإسلام مخالطة الجاهلين، وصحبة السفهاء والمغفلين.

عنوان خطبة اليوم: **السخاء وأثره في رفعة الأمة.**

السين والخاء والحرف المعتل أصل واحد يدل على اتساع في شيء وانفراج.

والسَّخَاءُ لغة: الجُودُ. وهو الاتساع في الإنفاق على ما يفيد، والسَّخِيُّ: الجَوَادُ.

والسخاء اصطلاحاً: هو إنفاق ما ينبغي إنفاقه في الوجه الذي ينبغي الإنفاق فيه.

أخرج الترمذي عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ، وَالبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ بَعِيدٌ مِنَ الجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، وَالْجَاهِلُ السَّخِيُّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ».

وقد كان يقال لسيدنا عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب وهو من صغار الصحابة " قطب السخاء". لما له من فنون في الإنفاق.

من ذلك ما جاء في طبقات ابن سعد: جلب رجل من أهل البصرة سُكّراً إلى المدينة فكَسَد عليه. فذُكر لعبد الله ابن جعفر، فأمر عامله أن يشتريه منه ويوزعه على الناس من دون عوض.

وفي سير أعلام النبلاء أن عبد الله ابن جعفر أسلف الزبير ألف ألف. فلما توفي الزبير، قال ابن الزبير لابن جعفر: إني وجدت في كتب الزبير أن له عليك ألف ألف.

قال: هو صادق.

ثم لقيه بعد، فقال: يا أبا جعفر! وهمتُ؛ المال لك عليه.

قال: فهو له. لا أريد ذلك.

وفي العقد الفريد أعطى عبد الله ابن جعفر امرأة سألته مالاً عظيماً، فقيل له: إنها لا تعرفك وكان يرضيها اليسير. قال: إن كان يرضيها اليسير فإني لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي.

ولم أر كالمعروف أمّا مذاقه فحلوٌ وأمّا وجهه فجميلُ

وللسخاء – أيها الإخوة– صور كثيرة:

فيدخل في صور السخاء: من يكون له دين على آخر فيطرحه عنه أو بعضَه، ويخلي ذمته منه.

كان لعثمان رضي الله عنه خمسون ألف درهم ديناً على طلحة بن عبيد الله، فجاءه طلحة يوماً، وقال له: قد تهيأ مالك، فاقبضْه، فقال عثمان: هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك.

ويدخل في صور السخاء: من يستحق على عمل أجراً، ويترك الأجر من تلقاء نفسه، فالطبيب الذي يعالج الفقراء، ولا يقبل منهم ما يقدمونه له من أجور، يعد في الأسخياء، كمن يبذل المال للأطباء على معالجة الفقراء.

ويدخل في صور السخاء: من يقيل نادماً بيعه أو شراءه.

اشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة داره بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل، سمع بكاء أهل خالد، فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ فقالوا: يبكون لدارهم، فقال: يا غلام! ائتهم، فأَعلمْهم أن المال والدار لهم جميعاً.

ويدخل في صور السخاء: من يكثر صدقاته على الناس زمن الشدة والغلاء.

أصاب الناس قحط في خلافة أبي بكر الصديق، فلما اشتد بهم الأمر، جاءوا إلى أبي بكر وقالوا: يا خليفة رسول الله، إن السماء لم تمطر، والأرض لم تنبت، وقد توقع الناس الهلاك، فما نصنع؟ فقال: انصرفوا واصبروا، فإني أرجو الله ألا تمسوا حتى يفرج الله عنكم.

فلما أصبحوا وفدت المدينة قافلة فيها ألف بعير موثوقة براً وزيتاً ودقيقاً، فأناخت بباب عثمان رضي الله عنه، فجعلها في داره، فجاء إليه التجار، فقال: ما تريدون؟ قالوا: إنك تعلم ما نريد. فقال: كم تربحوني؟ قالوا: اللهم درهمين. قال: أعطيت زيادة على هذا. قالوا: أربعة. قال: أعطيت أكثر قالوا: خمسة. قال: أعطيت أكثر. قالوا: ليس في المدينة تجار غيرنا، فمن الذي أعطاك؟ قال: إن الله أعطاني بكل درهم عشرة دراهم، أعندكم زيادة؟ قالوا: لا قال: فإني أشهدكم أني جعلت ما حملت العير صدقة لله على الفقراء والمساكين.

ويدخل في صور السخاء: من يرسل لعائلات ضعيفة نفقاتهم، وهم لا يعرفونه كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين زين العابدين، فقدوا ذلك الذي كانوا يؤتون بالليل.

وقال بعضهم: ما فقدنا صدقة السر حتى توفي علي.

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: 271].

ويدخل في صور السخاء: من يقضي عن الناس تبعاتهم ويخفي ذلك عنهم.

كان عبد الله بن المبارك ينزل الرقة في خان، فكان شاب يختلف إليه ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث. قال: فقدم عبد الله الرقة مرة فلم ير ذلك الشاب فسأل عنه فقالوا: إنه محبوس لدين ركبه.

فقال عبد الله: وكم مبلغ دينه؟ قالوا عشرة آلاف درهم، فلم يزل يستقصي حتى دل على صاحب المال فدعا به ليلاً ووزن له عشرة آلاف درهم وحلفه ألا يخبر أحداً ما دام عبد الله حياً. وقال: إذا أصبحت فأخرج الرجل من الحبس.

وأدلج عبد الله وأُخْرِج الفتى من الحبس، وقيل له: عبد الله بن المبارك كان ها هنا وكان يذكرك، وقد خرج، فخرج الفتى في أثره فلحقه على مرحلتين أو ثلاث من الرقة، فقال: يا فتى أين كنت؟ لم أرك في الخان؟ قال: نعم يا أبا عبد الرحمن كنت محبوساً بدين. قال: وكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجل وقضى ديني ولم أعلم به حتى أخرجت من الحبس. فقال له عبد الله: يا فتى! احمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك. فلم يخبر ذلك الرجل أحداً إلا بعد موت عبد الله.

أيها الإخوة:

(تبلغ الأمة المجد والسيادة بحفظ دينها، وسعة معارفها، وسمو أخلاقها، وصيانة أعراضها، وتآلف أبنائها، وحماية أوطانها، وكل هذه المقاصد رفيعة الشأن إنما تتحقق بالمال الذي يبذله الأسخياء وبالجهد الذي يبذله الأوفياء.

للسخاء أثر في حفظ الدين: فالمساجد التي تقام فيها الصلوات، والمعاهد التي تدرس فيها علوم الدين، كل ذلك معدود من مآثر السخاء.

وللسخاء أثر في تنمية العلوم، وذلك ما تجود به النفوس الكريمة من أموال تصرف في إنشاء المدارس والجامعات، وكفالة طلاب العلم النافع، وإرسال البعثات العلمية، أو طبع كتب قيمة، أو عقد مسابقات لتحقيق بحث علمي أو أدبي.

وللسخاء أثر في نبل الأخلاق وسلامتها، إذ السخاء ينقذ أناساً كثيراً من الفقر والمرض والجهل الذي قد ينجرف بهم إلى فساد الأخلاق وضيعة الآداب.

وللسخاء أثر في صيانة الأعراض، ذلك أن الكريم يبذل المال لذي الحاجة، فيصون ماء وجهه من الابتذال بالسؤال، ثم إن الأسخياء يصونون أعراضهم بما يسدون به أفواه أناس لولا عطاؤهم، لأطلقوا ألسنتهم بذمهم، واختلقوا لهم معايب هم منها براء.

قال أسماء بن خارجة: ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة طلبها؛ لأنه لا يخلو أن يكون كريماً فأصون عرضه، أو لئيماً فأصون عرضي عنه:

أصون عرضي بمالي لا أدنسه   لا بارك الله بعد العرض في المال

وللسخاء أثر في ائتلاف القلوب، وتأكيد رابطة الإخاء، ذلك أنه يبذر محبة المحسنين في قلوب ذوي الحاجات وغيرهم.

أما أثر السخاء في حماية الوطن، فإن إعداد وسائل الدفاع، إنما يكون بالمال، وعلى قدر سخاء الأمة يكون الاستعداد.

وقد أشار القرآن المجيد إلى أن الإمساك عن الإنفاق في سبيل دفع العدو، إلقاءٌ باليد إلى التهلكة، فقال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]).

فالحاصل أن مجد الأمة بسخاء أبنائها وجهد أوفيائها. [ينظر الأعمال الكاملة لمحمد خضر حسين].

ختاماً أيها الإخوة:

هذا شيء من الحديث عن السخاء وأثره في رفعة الأمة، ومن المعروف في سنن الله الحكيمة: أن السخي يفوز بالحياة الطيبة، ولا تكون عاقبته إلا الرعاية من الله والكرامة.

قالت سيدتنا خديجة رضي الله عنها للرسول صلى الله عليه وسلم: "والله! لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" [البخاري].

والحمد لله رب العالمين